تفلسف ضد هدر المعنى

في حوار مع الصديق الشاعر أحمد جان عثمان– وهو لمن لا يعرفه صيني يكتب الشعر بالعربية ولـــه حتـــى الآن أربـــع مجموعات من نمط قصيدة النثر– تركز حديثه حول وجوب "هدم المعنى" في النصوص الجديدة لأن الإصرار على "المعنى" يوقع الشاعر الحديث أو الكاتب الحداثي في خلق (مطلقات) تظل كذلك مهما ادعت أنها حديثة وحداثية، وهي بالتالي: تقود إلى غائية لم تعد العلوم المعاصرة تسمح بالاعتقاد بها... هذا من جهة، ومـــن جهة أخرى فهي ترجع إلى يقينيات أدبية وغير أدبية أصـــبحت فائتة. أما أنا فأذكر أنني دافعت عن وجوب "وجود المعنى" فـــي النص نثرياً كان أم شعرياً وهو وجوب تفرضه (طبيعة الأشياء) مثلما تفرضه الحدود والكيفيات التي بها وداخلها يعمـــل الـــذهن الإنساني خلال العملية التبادلية بينه وبين الواقع، إذ كيفما قلَّـــب الكائن البشري بصره وبصيرته يجد (النظام)، و(النظام) حامـــل معنى سواء أكان غائياً أم لا.

وتشعب حوارنا ولم نصل إلى اتفاق. وفيما بيني وبين نفسي قـــدرت أن الأمـــر ذو صـــلة بالاضـــطراب العـــالمي القـــائم؛ الاضطراب الذي وسم ويسم مرحلة ما بعد الحداثة حيث التفكيك وما بعد التفكيك من فوضى في آليات التعبير تعكس جلياً فوضى المرحلة الحضارية الراهنة وانعدام ثقة الإنسان بنفسه وبمعنـــى وجوده وبالآخرين.. وبالتالي هدر معنى الحياة من قبل الطغمـــة

التي أوصلها منطق التطور الرأسمالي إلى أن تصير- الآن- قادرة على ذلك.

ولست أدري لماذا ظل ذلك الحوار- بأطروحاته المتناقضة- يحضر في ذهني بقوة متزايدة بين وقت وآخر وفجأة وفي إحدى مرات تذكرِه خطر لي أن هدم المعنى هو أحد أشكال إعادة إنشائه وأن ذلك جزء من طبيعة بنيان الوجود كاملاً بسائر مفرداته الكونية.. بما في ذلك وجودنا في حياة عابرة على هذه الكبسولة الكونية الضئيلة التي اسمها: الأرض. وعرفت عندها أنني "أتفلسف".

وها أنا أستميح القارئ عذراً عن تثبيت تفلسفي ذاك هنا. فالنص الأدبي أو اللوحة أو المقطوعة الموسيقية.. أو.. أو.. لا بد لها جميعاً من مرجعية معرفية، والمعرفة كي تكون حية لا بد أن تكون دائماً موضع مساءلة أو موضع مراجعة ونفي وإثبات، فمحاولتي إذاً في هذا "التفلسف" تملك قسطاً من المشروعية فليحتملني القارئ قليلاً كان الله في عونه.

تساءلت أولاً: هل الحياة- عموماً- تميل إلى أن تنقض ذاتها دائماً كي تستطيع أن تستمر؟ إنها بهذا تنجز المعنى الكامن فيها، فالمعنى ليست طبيعته إلا نشوءاً فموتاً، فعودة انبثاق فموتاً.. فعودة.. إلى ما لا نهاية له في الزمن. والزمن هكذا، هل هو إلا لحظات متدفقة متقطعة متتالية- والفكرة لباشلارد- والمعنى يمنحها اتصالها كتدفُّقٍ، حيث الإنسان هو مكتشف المعنى، أو بعبارة أدق: إنه خالقُه كوعيٍ مشروط لطبيعة وجوده؟! غير أن الإنسان لا يفعل ذلك إلا وفق ما هو مركب فيه فطرياً من بنيان ذهني/ روحي يمكنه أن يصله مباشرة (بالقانون) الذي انبثقت

منه الحياة ليس على الأرض وحدها وحسب، بل في ما لا نعرفه من جهات الكون كله على وجه الإجمال.

إن المعنى الذي تنجزه الحياة عبر قابلية الكشف والخلق في بنيان الإنسان ليس إلا صيغة نفي للعدم واجتراء في الانقضاض عليه لدحضه وإلغائه، غير أن ذلك كله ليس إلا فاعلية استنباطٍ للمجرّد مفهومياً من المجرب عيانياً، والتعبير الإبداعي الإنساني نوع من الإعلان عن مستوى نجاح تلك الفاعلية. وللوصل بين هذين الحدين المتناقضين- أي المجرد والمجرب- حيث كل منهما يبدو كما لو أنه (كذبة/ حلم) إذ يتنافى مع نقيضه. لكنه لا يجد تسويغ ذاته إلا به أمام الكينونة الإنسانية الفاعلة كي تستطيع حمل المعنى، فإن (الرمز وعملية الترميز) يشكلان حقل الاتصال والتصالح داخل البنيان الذهني/ الروحي للإنسان بالنسبة لهذين الحدين المتناقضين المتنافيين.

والرموز تصورات والترميز صياغة تصويرية دالة.. أي إنجازٍ للإبداعات.. ودون ذلك لا يكون "حقل الاتصال والتصالح" سابقُ الذكر، فينهدر الوجود ذاته في الذهن الإنساني بتضييعه.

والرموز مركبات من "الحدوس" والذكريات المحالة لا شعورياً في سيرورات ذات فردية تستند على ما لا يحصر من "حدوس" الذوات الماضية وتذكراتها المحالة... أما الترميز فإعادة إنشاء ذاتي- بأدوات الخطاب المختلفة، الداخلية والمنبثة خارجاً- لتجارب "الشخصية" التي نقول عنها "مبدعة"، حيث هناك مستوى من التوتر الانفعالي الوجداني متداخل بصميمة مع مستوى من التوتر العقلي الواعي، أو الذي يريد أن يكون واعياً بالأحرى.. وبهذا يكون الإبداع ويكون الفكر، ويكون العلم

المستند إلى معرفة (القانون) أو اختبار بعض من تجلياته.

إن المعنى يرتقي هكذا، إذ ثمة دائماً هدم وبناء لا بد منهما كي تستمر العمليات السابقة. وبارتقاء المعنى يكون سجال الوجود والعدم أرقى ما يكون على الحافة الدقيقة بينهما حيث تجد الفلسفة ذاتها في أسئلتها المشتقة من ذلك السجال، وفي محاولاتها المتجددة للإجابة على تلك الأسئلة المتسمة بالثبات. وهي ترفع الإبداع إليها لتجد فيه وسيلة كي ترتفع هي به، وتنفتح حدود إدراك القانون أكثر كي يباح لما هو "موجود" أو "ممكن الوجود" مقاربة التطلع إلى "وجوب الوجود" وإلى "واجب الوجود بذاته"- على حد التعبيرات الأرسطية- رغم يقين الموجود والممكن إذ يتحقق بأنهما (كمحدود) محكومان- بموجب القانون ذاته- بألاّ يقدرا إطلاقاً على أن يصيرا من طبيعة (غير المحدود). ومن الطريف، أن المعنى يتعزز- فيما هو يُنتقضُ وينبثق متجدداً في الوقت ذاته- كلما اصطدم بجدار عجزه أمام اللامحدود.. لكان ثمة يقظة أرقى دائماً لحلم التجاوز مع كل صدمة.. ولكأن ما هو مركب في بنيان الكينونة البشرية محكوم بهذا الحلم الذي يمنع اليأس، أو لكأنما اللامحدود يمسك بالمحدود مانحاً إياه ما يحول بينه وبين أن يتبدد.

إن العدم هنا ينكسر مرتداً عن امتلاك المعنى وقد كاد يطبق عليه ويصبح الوجود نافذ القوة في إثبات ذاته.. فالوجود نصٌّ- على المجاز- قوامُهُ المعنى، وهو يحتمي بالصورة في التعبير عن ذاته وتوكيدها، والوجود- من جهة أخرى- تظاهراتٌ لحركة البنيان الطاقي في الكون، حيث القانون يُبادِل بصورة مستمرة- تكاد تكون شبه مغيبة عنا- ما بين الكثيف واللطيف في هذا البنيان الطاقي... وهو بهذا يمنح المعنى مزيداً ممّا لا

يمكن حصره من الصور الجديدة الواقعية فيجعله بذلك (غياب حضور) فيها، باعتبارها وعاء الرموز الدالة وماهيتها المستوحاة من الوعي إنسانياً، في آن معاً.

إن الإبداع، بما هو تعبير ذلك كله متجلياً في لغة ولون وحركة جسد وصوت، يحول بين التحقق المتجدد باستمرار للمعنى وبين تثبيته في لحظة من الزمن- أي أنه يحول دون تزمُّنِه كما يقال- ويطلقه في الزمان الواسع شبه المطلق نحو مقاربة اللامحدود، فكأنما هو يهدمه ويبنيه باستخدامه كي لا يصير الزمن مجرد توالٍ ميت للَّحظات، بل ليكون مجرى حاملاً لحلم البشرية بالخلود عبرَ تدفقه المستمر الذي لا يكون إلا بعدم هدر المعنى.

ثمة إذا ما يجب أن يقال دون لبس، وهو:

إن الثبات محال وأن محاولة التثبيت خيانة.. خيانة لا للمعنى أو للتركيب الذي نعتقد أنه غائي في طبيعة التكوين الإنساني، بل هو خيانة لتطلعات الروح والعقل وهما يقاربان إثبات "حقيقتيهما" وانعدام قابليتهما للتبدد في مواجهة العدم، كما أنه خيانة للامحدود/ واجب الوجود وهو يمسك بالمحدود كي يعينه على الوصول إلى أقصى غايةٍ لإمكانية التفتح.

وبالطبع، لا نهدف من هذا "التفلسف" إلى تجاهل حقائق الصراع في التركيبة الحضارية البشرية: لا ماضياً ولا راهناً ولا مستقبلاً، فتلك الحقائق هي محور إمساك اللامحدود بالمحدود.. لكننا أردنا الكشف عن قيمة الإبداع في عمليات الوجود البشري واستمراره أولاً، وعن وجود عدم هدر المعنى في الإبداع ثانياً وأخيراً.

فهل كان "تفلسفنا" موفقاً في هذا الصدد ولو قليلاً رغم بعض التعقيد فيه؟

آمل ذلك بالتأكيد..!!

❑❑